سِيْدِي عُمَر

ذكريات الشيخ محمد أبو طير

تحرير

بلال محمد شلش

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

الفصل الثالث

خيَّم ظلام السجن

خيَّم ظلام السجن

هاجس الأمن عند دولة الاحتلال، حاضر في جميع مؤسسات الدولة، بل هو الطاغي على حياة الصهاينة؛ لأن هذا الشعور متولد من بشاعة ظلمهم، ومن حكمهم للشعب المقهور، واغتصابهم لأرض فلسطين. والسؤال: كيف يأمن من سلب الآخرين أرضهم وشردهم خارج ديارهم؟ ها نحن في سجون العدو، ونشعر بالأمن أكثر من السجان، ننام ليلنا الطويل، أما هو بما عنده من شرطة وجيش وأجهزة أمن، وشعب كامل يعيش هوس الأمن، وإمكانيات هائلة وأموال طائلة في خدمة الأمن، ولكن هيهات لهم أن يطمئنوا أو يشعروا بالأمن!! فالقدس (ومنذ أن احتلت) في معظم حاراتها وأسواقها لا تخلو من أجهزة الأمن وحرس الحدود والجواسيس. لكنهم يُفاجَأون، وتفاجئهم القدس بأبنائها الذين أوجعوا الاحتلال، والحمد لله.

سبقتني إلى المعتقل مجموعات من شباب القدس، ومن مناضلي فتح والجبهة الشعبية والديمقراطية، فالقدس شكلت "عظم الرقبة" في جميع العمليات العسكرية، وهي كالمرآة المقعرة، كل حدث فيها ينعكس أثره على العالم كله.

وعلى كل حال... كل مَنْ يعمل في سلك العمل الفدائي، يشعر بأنه مطارد، وفي 1974/9/12 ليلاً، دهمت قوة عسكرية إسرائيلية، وبقيادة جهاز الأمن العام (الشاباك) Israel Security Agency—Isa (Shabak) وشرطة الاحتلال بيتنا، بعد حصار فرضوه على محيط البيت وعلى القرية. ودخلوا البيت بالقوة وفتشوه، وبأمر اعتقال وضعوا القيد في يدي، وبعد أن أنهوا مهمتهم في التفتيش. ساقني جنود عن اليمين وعن الشمال إلى ناقلة من ناقلاتهم، ومضوا بي إلى المسكوبية، ذات الشهرة والصيت البشع في التحقيق، وما إن وصلنا حتى باشروا التحقيق بأسئلة من هنا وهناك، ويصاحب ذلك ضربٌ لحصار النفس وكسر كبريائها... ولكن والحمد لله، كنت صبوراً، وكنت أكبر من استفزازاتهم، ولشهر كامل في زنازين الضرب والتحقيق؛ لأنه لم يكن أيامها شَبْح، بل كان ضرب وتكسير وحمل على البطانيات، وعجز عن ارتداء الثياب. وخرجت من هذه التجربة بنَفَس جديد، ونفسية أقوى وأصلب مما كنت عليه، وخرجت من هذه المحنة بأقل الخسائر، واعترفت عن تنظيم لحركة فتح في الخارج، وتدريب على السلاح وحيازة قنبلتين بلا صواعق قتلهما الصدأ، من بقايا الجيش الأردني مع كمية من الرصاص،

وبقي الأمر محصوراً بي وحدي، ولم أُلحق الأذى بغيري، إلا السيد الوالد رحمه الله، الذي حضر إلى المعتقل في المسكوبية ليزودني بالملابس، فدار بينه وبين الشاباك حوار ساخن قالوا له: إن الشيخ قد اعترف، فقال لهم الشيخ لا يعترف، ولولا أنكم ضربتموه لما نلتم منه، عندها حجزوه ووجهوا له تهمة التستر على ولده. وحكموه بسنتي سجن قضى منهما ستة أشهر، ثمّ أفرج عنه.

بعد شهر من التحقيق، وجدوا عندي آلة طباعة بدائية، وكان لها دور في طباعة المنشورات المناهضة للاحتلال، وبيانات في ذكرى استشهاد القادة الثلاثة، أبو يوسف النجار، وكمال عدوان، وكمال ناصر.

تمّ ترحيلي والوالد إلى سجن بيت ليد أو كفاريونا، واستقبلنا السجناء واستوعبتنا غرف السجن، وجمعتني والوالد وأسرى آخرين غرفة واحدة. وكنت أشعر بالضيق لوجود الوالد بيننا، ولكن ما كشفته لي الأيام، أنه كان صبوراً محتسباً وأن هذه أقدارنا، وكان يقول لي: لا عليك تنقضي الأيام، وهذه أمرٌ كتبه الله علينا. عندها استوعبت الدرس، ووجدت عند الوالد نفسية قادرة على استيعاب المحنة، وقال لي وجود الوالدين في البيت سياج، ولما مات والدي رحمه الله، أصبح البيت وكأنه بلا جدار يحيط به، وأذكر أنه رأى رؤيا قصها علي، وما أكثر رؤى المساجين. قال رأيت فيما يرى النائم أني واجهت ثلاثة من الإبل، تغلبتُ على اثنين والثالث نجا، وأولها لي فقال: الثلاثة من الإبل هم القضاة في المحكمة العسكرية (والجمل في المنام عدو)، اثنان من القضاة لصالحي في الحكم والآخر ضدي، وكان في المحكمة كما ذكر، النيابة طلبت ثلاث سنوات حكماً فعلياً، وكان حكم القضاة سنتان، ستة أشهر فعلية والباقي مع وقف التنفيذ.

من خلال التحقيق، اعترفت على علاقتي بالأمن المركزي في بيروت، وذكرت اسم الأخوين أبي رمزي العايدي، وأبي أنور أحمد أبو طير، ولم أذكر سواهما خاصة ارتباطي بدمشق بأبي الوليد، سعد صايل.

المجتمع الفصائلي في السجن:

ومن خلال الأشهر الخمسة، التي قضيناها قبل الحكم في سجن كفاريونا، كانت هناك فصائل تحت التشكيل، كانت فتح موجودة والجبهة الشعبية والصاعقة السورية والحزب الشيوعي، الذي جعل من الجبهة الوطنية غطاء لنشاطاته. فالجبهة الوطنية

تشكلت في الضفة الغربية المحتلة، والتي استثمرها الحزب الشيوعي في تنظيم الناس واحتوائهم؛ لأن الناس بفطرتهم، لا يقبلون الشيوعية، لأجل هذا، فالحزب الشيوعي غير مقبول عند الناس، أما الجبهة الوطنية فوجه جديد ومغرٍ. وعلى صعيد العمل العسكري، لا يذكر لهم نشاط أو أي عمليات عسكرية، وكان دورهم يقتصر على التنظير، والشعارات التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

أما فتح، فكانت تنظيمي الذي عملت من خلاله في الخارج وداخل السجون، وحاولت جاهداً أن أحافظ على هذا التنظيم، من خلال التعبئة واللقاءات، والوقوف في وجه التنظير للشيوعية، والحفاظ ما أمكن على تدين الشباب، وخاصة من هم عند الحزب الشيوعي والذين غُرر بهم، وكذلك مَنْ هم عند الجبهة الشعبية، التي تتبنى الماركسية منهجاً، والتي كانت في تلك الأيام حاضرة بقوة بمصطلحاتها المستوردة من الفكر الماركسي. وكان عليّ نفسياً من خلال الأيام، وعلى عقلي وفطرتي أن تقف بالمرصاد لهذه الهجمة، ومن يُنَظِّرُ لها، فالنفس لن تكون قوية ما لم تكن على أرض صلبة من الوعي والثقافة، ومعرفة الدين على حقيقته التي عملت الماركسية على تشويهه، تحت مصطلحات ما أنزل الله بها من سلطان.

فأما العقل، فما يعرض عليه من أفكار وثقافات، فعليه أن يزنها، وأن يخرج الغث من السمين. وكنت أقول: على الناس أن يراجعوا رصيدهم، وأن يراجعوا الإسلام، وأن يعرضوه على عقولهم، بدلاً من الانصراف إلى العقم في الحياة، والحجر على العقل البشري بمصطلحات ضيقة، ينخدع بها الجهلة من الناس، وشعارات خاوية من مضامينها، بل أين هم اليوم؟ وما إن انهار الاتحاد السوفييتي، فإذا هم عالة على الغرب الرأسمالي في جمعياتهم، ومؤسساتهم عالة على المنظمات غير الحكومية الـ NGOs، وإذا بالمصالح تتغلب على المبادئ. والعجيب في حملة الفكر الماركسي، من خلال الأيام الأولى في السجن، أيام السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن الماضي، أنه ما من صفحة سوداء في تاريخ الإسلام إلا كان اهتمامهم بها عظيماً، فالقرامطة كانوا قدوة لهم، والاهتمام بما كُتب عنهم عجيب، وهم أسوأ ظاهرة في تاريخ الإسلام، وثورة الزنج حظيت عندهم بالتنظير. وكنت من خلال خطبة الجمعة في ساحة السجن أنعت الماركسيين بقرامطة هذا الزمان.

وأما أقوى ما في الإنسان فهي فطرته، وخلال المحنة تنقطع عنك أسباب الأرض جميعاً، لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت، إنما ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[1]، ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾[2]. والفطرة حاضرة لكل إشارة أو نداء، مهما تزاحمت عليها الفتن، (الشهوات منها والشبهات)، أو اعتراها من ركام التصورات، فهي أقوى ما في الإنسان. ولما دخلت السجن لأول مرة سنة 1974، كانت معرفتي الفكرية ضحلة، وكان فَهْمنا للدين قاصراً وغير ناضج. كان الفقه الحركي وفقه الدعوة في وادٍ، ونحن في وادٍ آخر، وحتى نواجه الأفكار المستوردة، وما يروج لها من أنها صانعة للثورات، ومدعومة من الاتحاد السوفييتي العظيم، والكتلة الشرقية، وأن المد الشيوعي يزحف؛ فاليمن الجنوبي ماركسي، والصومال، وأنغولا، وأثيوبيا، وأفغانستان، والوصول إلى المياه الدافئة. كل هذا كان له اهتمام في حسابات الثوار من فصائل المنظمة، أكثر من القضية الفلسطينية، حتى وإن دخلوا السجون من أجلها، لكن الانتصار للفكر له حقّ الأولوية. وأذكر ونحن في غرفة واحدة في سجن الرملة من فتح والشعبية والديمقراطية والمقاومة السرية من الجولان، وكان في الغرفة عمر القاسم، أحد قيادات الجبهة الديمقراطية، وعلى الحائط على شمال سريره خارطة أنغولا، فقلت له: بدلاً من أنغولا فلسطين، ولكن ما من جواب.

ومع ما ذكرت أن بداياتنا تحتاج إلى مخزون من المعرفة، ولولا التحدي الذي تقوده الفطرة ما نجحنا في تحييد هذه الأفكار، وإلى أن فتح الله علينا ببعض الكتب الإسلامية، منها شبهات حول الإسلام للأستاذ محمد قطب، رحمه الله.

في سجن كفاريونا تمثل الشعب الفلسطيني كله، فمن داخل الخط الأخضر شباب التحقوا بركب الثورة، وكذلك من القدس والضفة والنقب الثائر، ومن الشتات لفصائل مختلفة. وفي سجن كفاريونا والسجون الأخرى التقى شباب من الجولان السوري المحتل، ومن الأردن، ومصر، والسعودية، واليمن، والسودان، والمغرب، ولبنان، وسورية، ومن العالم كله جمعتهم القضية الفلسطينية، وقاتلوا من أجلها.

في سجن كفاريونا التقيت رجالاً من هضبة الجولان، من الطائفة الدرزية، دخلوا السجن بدافع وطنيتهم وتصميمهم على أن الجولان جزء من سورية الأم. وحسب

[1] **القرآن الكريم**، سورة النمل، آية 62.

[2] **القرآن الكريم**، سورة الأنعام، آية 63.

تقدير الاحتلال بادئ الأمر فهم على شاكلة دروز فلسطين، الذين انخرطوا في الجيش الإسرائيلي، لكن إخواننا في الجولان حافظوا على هويتهم، وانتصروا لوطنيتهم. أما دروز فلسطين، فقد سرت الصحوة الوطنية إلى فريق منهم وأصبحوا اليوم على وعي بطبيعة الصراع. ومنهم وفيهم الأحرار الذين يرفضون التجنيد والخدمة الإجبارية. ودروز هضبة الجولان، ومن لحق بهم فيما بعد، كالإخوة صدقي المقت، وبشر المقت، وإيهاب، وعصام الصفدي، وهايل، وسيطان، وعاصم الولي، وغيرهم... فلا أقول فيهم، إلا أنهم أصحاب وطنية صادقة. وعشنا وإياهم معاً، وفيهم كرم ونخوة، لكنهم ليسوا على علاقة مع التدين، ويجهلون ما عليه مشايخهم وآباءهم من التدين، وليس أمامهم إلاّ الولاء للنظام في سورية، وهم إلى الفكر الماركسي أقرب من شعارات حزب البعث.

المرض والصدام:

ليس من السهولة أن تتأقلم مع ظروف السجن، فمن الحرية —وإن لم تكن هناك حرية في ظلّ الاحتلال— فمن الحرية المجزوءة إلى غياهب السجون وغرفه المعتمة، فإن هذا أمرٌ جلل وصعب جداً، وقاسٍ على المرء وعلى النفس البشرية. فالاحتلال هو الحَقيقُ بأنْ يُسجن، وأن يغيب عن هذا الوجود، يكون التأقلم صعباً في البداية، وإن شئت فابدأ بأبناء غرفتك الذين يختلفون في تربيتهم، وفي سلوكياتهم، وأخلاقهم، ففيهم من ترتاح إلى العيش معه، ومنهم من يُتعب، ومجتمع السجن كثير المشكلات، وربما تثار عن قصد.

والطعام في السجن سيء جداً، ولا يُقيت رجالاً كما يقولون، وهذه سياسة إدارة السجن ومصلحة السجون "النتسيق"، وما هي إلا تصبير، وكم من الليالي وأبي وسوانا طوينا جائعين!!

والسجين عرضة للأمراض، ولولا الملاذ بالله سبحانه وتعالى، لضاق من حولنا كل شيء، ولضاقت علينا أنفسنا. فالحرمان وتفشي الأمراض يُسخن الأجواء ويخرج المرء عن طوره. ومن الأمراض التي أصابتنا في سجن كفاريونا، كثرة الهرش والحكاك بشكل مؤذٍ، بل تطفح على الجلد القشور والحبيبات، وعلى الخصوص في المناطق الحرجة من جسم الإنسان، وما يزيد الطين بلةً هو إهمال عيادة السجن في العلاج وعدم نجاعة الأدوية، هذا كله في الأيام الأولى من مراحل السجن.

وكل يوم جمعة من كل أسبوع يقوم مدير السجن بزيارة لأقسام السجن وحجراته، ترافقه بطانته، ويدعى هذا المدير "ابن سابو" من يهود المغرب. وبالرغم من أن البلدان العربية التي سكنها اليهود من لمْ تُسِءْ في العشرة والجيرة، وحافظت على ذمتها معهم، لكن كراهية هؤلاء لنا وللعرب أكثر ممن جاؤوا إلى فلسطين من دول أوروبا.

"ابن سابو" هذا، دخل في يوم زيارة له إلى غرفتنا، وقلت للشباب ممن هم معي في الغرفة، لا تتحدثوا معه، أنا مَنْ سيتحدث معه، فلما دخل علينا بعنجهيته قائلاً كعادته في كل زيارة، وللغرف جميعاً: "بيش بعيوت"، كلمة عبرية معناها: هل من مشكلات؟ قلت له نعم، عندنا، قال ما هي مشكلاتكم؟ قلت له: نحن، وإذا به يقاطعني ويقول لي: لا تقل نحن، قلت: نحن مرة أخرى. وهو لا يريد أن نتكلم باسم المجموع، يريد من كل واحد منا أن يطرح مشكلته فقط وبكلمة "أنا"، فرفضت ذلك، وقلت له: نحن أسرى عندك، ومن حقنا عليك أن تأمر طبيب السجن بعلاجنا فنحن مرضى، فقال: لو كنت طبيباً ما عالجتكم، أنتم قطاع طرق، فقلت له: أنتم الحرامية، أنت ودولتك، أنتم من شردتم شعبنا، واحتللتم أرضنا، وأنت تعيش هنا على حساب أرضنا، ومن خيراتها. فجُن جنونه، وقال لبطانته ولضابط الأمن عنده، أخرجوه إلى الزنازين. فخرجت إلى الزنازين ومكثت ليلة، فاحتج شباب السجن على ذلك الإجراء، وأضربوا عن الطعام لوجبتين؛ للضغط على إدارة السجن، وكان لذلك ردة فعل إيجابية.

وفي اليوم الثاني جاءني شاويش درزي، من العاملين في السجن واسمه معين عماشه، وقال لي يا شيخ، سوف يقوم المدير بزيارتك في الزنزانة، ولا بأس أن تتأسف له، قلت له: يا هذا، تريدني أن أتأسف له؟! والله لا أقبل به راعي غنم عندي، فقال يا شيخ، هذا مدير السجن، فقلت له: من هذا مدير السجن؟ وعلى بال مين؟

بعدها جاء المدير، وقال لي: شيخ، أنت رجل، قلت: نعم، فقال: إذن، إنزل معي قتال حر، بكلمة إنجليزية free fight فقلت له باستغراب: أنت مدير سجن؟ قلتها باستنكار، وعلى كتفك ورقة دوالي، أستغرب منك ذلك، فأدار ظهره ورجع من حيث أتى. عندها جاءني ضابط ممن معه، وفتح الزنزانة، ووضع يديه على وجهي محيياً... ومُعْجباً، وتعامل معي بعد ذلك باحترام.

رجعت إلى إخواني ورفاقي في السجن، واستقبلوني بأخلاقهم واحترامهم، وهم مشكورون على موقفهم، وهذه من حسنات السجن، أن للتضامن روحاً وثابة عند

جموع الأسرى. وكنت ذكرت من قبل أن الطعام في السجن سيء، لكن مَنْ يعمل في مطبخ السجانين، عرب جاؤوا على قضايا جنائية، وتعرفت إليهم. وكان من بينهم من يعمل في مطبخ السجانين، ذهبت بعمامتي إلى عمال المطبخ، والذي بابه على ساحة السجن، حيث نخرج يومياً ساعة أو ساعة ونصف (فورة) فقلت للعمال: نحن جئنا إلى السجن على خلفية وطنية، والمطلوب منكم أن تحسنوا الطعام وتزيدوا في الكمية، قالوا: ليس بأيدينا، قلت بإمكانكم أن تتعاونوا في ذلك... وإلا والله يا فلان أبعث إلى أهل غزة، وأطلب منهم أن يعلقوك على عمود كهرباء في شارع عمر المختار. والصحيح أنهم تعاونوا معنا، وطباخ آخر كان يعمل في مطبخ شرطة السجن، ساعدنا دون الطلب منه، وكان يُهرب لنا كثيراً من الخضار، كنت أخص بها كبار السن وصغار السن.

وأذكر موقفاً آخر في هذا السجن، كان مدير السجن في يوم الثلاثاء من كل أسبوع يأتي، وضابط أمنه، إلى غرفة طعام السجن، ويجلس لمن يريد امتيازات، كمنةٍ منه ربع ساعة زيادة في زيارة الأهل. وكان يعطيها لأناس دون أناس، تحت ذريعة حسن السلوك، وقد يتسبب ذلك بالتشكيك بهم. وقد عرضَ مدير السجن ذلك على السيد الوالد رحمه الله، فقررت في نفسي أن أدخل عليه الباب وأن أضربه، وكان يقف إلى جانبه في الساحة الأخ محمد اللداوي من غزة، لكن الوالد بصبره وحرصه عليّ، أثناني عن ذلك، وبتأييد من الأخ أبي حسام اللداوي، وانتهى الأمر وتراجعت.

المحاكمات والحكم:

كان لي وللسيد الوالد خلال تسعة أشهر، سفريات إلى محكمة اللد العسكرية. وسجن كفاريونا كان مركزاً للموقوفين الذين لم تصدر أحكام ضدهم، كانوا ينقلوننا إلى المحكمة بوسائل نقل تابعة لمصلحة السجون تسمى "بوسطة"[3]، ولمرتين قبل الحكم علينا، حيث قدمت النيابة لائحة اتهام للسيد الوالد ولي شخصياً. ودافعت عني وعن الوالد، رحمه الله، المحامية اليسارية فيليتسيا لانجر Felicia Langer، وقدمت بين يدي مرافعتها، أن الشيخ قام بواجبه، ونصوص القرآن الذي يؤمن به تعزز ذلك وتأمره بهذا. وكان

[3] البوسطة: سيارة نقل الأسرى، وغالباً ما تكون مركبة كبيرة لا يوجد فيها سوى فتحات صغيرة جداً. وتشبه في شكلها الخارجي خزاناً مغلقاً، يعاني فيها الأسرى، ويتحملون أبشع أنواع الإذلال والعقاب والضرر الصحي، حيث تكون مملوءة بالأوساخ وتنبعث منها الروائح الكريهة. للمزيد انظر ملحق "البوسطة"، وهو نصّ استكتبه الشيخ أبو طير للمهندس عبد الرحمن زيدان، يشرح فيه تفاصيل رحلة "البوسطة". [المحرر]

لي في المحكمة كلمة تحدثت فيها عن حقنا في الدفاع عن أرضنا، وأن هذا واجب شرعي، والاحتلال هو من أتى إلينا، ولم نذهب نحن إليه. وكان ممن حضر قرار الحكم في ذلك اليوم 1975/5/5 الأهل، والوالدة وجدّي رحمهما الله، وفضيلة الدكتور الشيخ عكرمة صبري. وصدر الحكم ضدي ستة عشر عاماً نافذة وفعلية، و37 عاماً مع وقف تنفيذ. وكان الحكم قاسياً ومفاجئاً؛ لأن لائحة الاتهام لا توجب بنودها حسب قانونهم هذا الحكم الجائر، فحمدت الله واحتسبت.

وقبل النطق بالحكم، طلب القاضي أن أقدم بين يدي المحكمة استرحاماً، فقلت: الرحمة لا تطلب إلا من الله، واستأنفت ضدّ الحكم فيما بعد، وخفّض من الحكم الأول ثلاث سنوات، فأصبح الحكم ثلاث عشرة سنة.

وخلال الفترة التي قضيناها موقوفين في سجن كفاريونا، كانت السيدة الوالدة تقوم بزيارتنا أسبوعياً هي والأهل والأقارب، ونتفاعل من خلال الزيارة. ولا يغيب عن بال أحد أن السجين كثيراً ما يفكر في الهرب من السجن، ولقد حاولت ذلك، لكن لم يكتب لي النجاح.

قم الليل إلا قليلاً:

لما انتهى التحقيق نقلت من المسكوبية إلى سجن كفاريونا، قلت: الآن تنام ليلك الطويل، وكنت أظن أن في السجن وقتاً للنوم، لكن تبين لي أنه لا راحة إلا بلقاء الله، من أين لك الراحة يا عبد الله؛ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾[4].

السجن بقدر ما هو قاسٍ على النفس، بقدر ما هو محطة للزاد. فالإنسان خارج السجن تعتريه مزاجية واستخفاف بالأمور، والعجلة والتسرع جناحيه، وتأتي عليه حالات، سهامُه فيها طائشة. وأما العبادات فكانت تفتقر إلى الطمأنينة، بل ما عرفت ولا تذوقت للصلاة طعماً ولا للمناجاة إلا في السجن، وكذلك الصيام، وكأن الله يريدها محنة فيها نقلة للتربية، فالسجن أيامُهُ لواجم، وكوابح، يقف الإنسان مع نفسه، ويتدبر الأمور بروية ومسؤولية.

[4] **القرآن الكريم**، سورة المزمل، آية 1–6.

ومسؤولية القدوة في السجن خطيرة جداً، على الدعوة وعلى العمل الدعوي، فخارج السجن لا تلتقي الناس إلا سويعات، أما داخل السجن فكل حركة محسوبة عليك، وأهم علم داخل السجن هو علم السلوك، فإنه المجاهدة. وكنت أصوم تطوعاً أياماً، وأجتهد ألا يدري مَنْ هم في الغرفة أني صائم، لأمتحن نفسي، ولأستشعر السرية في هذه العبادة، ونجحت في ذلك لعدة مرات، وأعجبني الصوم كثيراً، حتى إنني سميته "العبادة الصامتة". ووالله ما قرأت لأحد من قبل عن هذا الوصف؛ لأني سمعته فيما بعد من شيخنا وأستاذنا الدكتور الفاضل محمد راتب النابلسي، حفظه الله.

هناك لحظات فيها مذاق، محروم ثمّ محروم من لم يتذوقها، هناك خلوة تسأل صاحبها، أين كنا؟ وبالعاميّة "وين... مُدَّها طويلاً... وين كنا؟ وييين..." !!

في سجن الرملة المركزي:

بعد الحكم مباشرة، تمّ ترحيلي من كفاريونا إلى سجن الرملة، وقد سبقني الوالد من قبل، ولم يبقَ على خروجه من السجن إلا أيامٌ قليلة. وفي أول لقاء بيني وبينه في الرملة، كان صعباً للغاية، أخذنا بعضنا بالأحضان، لكن هيهات أن ينطلق اللسان، لم يكن باستطاعتي ولا بمقدوري أن أتكلم لصعوبة الموقف. ثمّ تريثت قليلاً، ودار الحديث بيننا، وطلبت من السيد الوالد، إذا ما خرج من السجن وعاد إلى القرية، أن يصطلح مع أبناء عمومتنا، وكان بيننا وبين أبناء عمومة لنا، قطيعة تامة؛ لأن منهم أَخَوان تزوجا من أختي وخالتي، وحصل الطلاق للاثنتين، ومفهوم الناس في الطلاق العداوة والقطيعة، فطلبت من الوالد أن يُصلِح الأمر، وأن تنتهي هذه القطيعة، وأوصاني وأوصيته. وحاوَلَت معه إدارةُ السجن من خلال الأيام التي قضاها، أن يعمل في نسج "شبك الدبابات" [غطاء لتمويه دبابات الاحتلال كان يجبر الأسرى على صناعته]، فرفض رحمه الله، رفضاً قاطعاً، بينما كان من يعتبر نفسه قائداً في تنظيمه، وماركسياً أممياً في تنظيره، يعمل يومياً في تلك المهنة القذرة. واشتغل أبي في صناعة الملاقط، حيث كان العمل إجبارياً داخل السجن.

في سجن الرملة، وعند وصولي إليه، استبدلوا ملابسي المدنية بملابس السجن، أخذوا كل ما لدينا من ملابس خاصة. ودخلت إلى قسم يقال له "الأغاف" وهي كلمة عبرية ومعناها "القسم"، وكان خاصاً بفصائل منظمة التحرير وأبناء هضبة الجولان،

ومن قبل كان جامعاً لأبناء الدوريات، الذين دخلوا الحدود في عمليات عسكرية، ثمّ نقلوا إلى سجن عسقلان، وكان في القسم حجرة للجنائيين يهوداً وعرباً.

دخلت إلى القسم، وكان من فيه من أبناء فتح وحتى الفصائل الأخرى بانتظاري؛ لأن أخبار السجون والمحاكم، يتناقلها السجناء من خلال رسائل أو لقاءات شخصية. كان اسمي قد وصل قبل أن أصل، وظنوا كثيراً أن الشيخ محمد أبو طير هو أبي رحمه الله. وكذلك وصلت إليهم أخبارنا في سجن كفاريونا، حتى قال لي كمال النمري، من قادة الجبهة الشعبية، أنت صدامي كما وصلتنا الأخبار، فقلت: أنا كما تراني.

استقبلني الإخوة في حجرة من حجرات السجن، وكانت خليطاً من فتح والجبهة الشعبية والديمقراطية والمقاومة السرية من دروز الجولان، والنضال الشعبي... (كوكتيل ثوري). كانت كذلك خليطاً من نفسياتٍ وأفكارٍ غير منسجمة، وكل إنسان يعيش حصاراً في نفسه وغرفته بلا تفاعل اجتماعي. بالطبع جبهات اليسار، حتى "المقاومة السرية"، كانوا أسرى للفكر الماركسي، وأسرى لثقافة الإلحاد المعمول بها، وعملية غسيل كاملة لكل من انتمى لليسار، ويأتي المناضل من الخارج وهو يصلي ويصوم، وإذا به بعد أسبوع أو أسبوعين أو أقل، يترك كل شيء، ويجهر بالمكابرة، ويقول: اقنعني أنه يوجد إله. "طيّب" أنت بالأمس كنت تتوجه بالعبادة إلى الله تصلي وتصوم، بهذه السرعة نزلت عليك القناعة أنه لا إله والحياة مادة.

عجيبة تلك المرحلة، فقد كان فيها الفكر الماركسي طاغياً، وكانت فتح بعلمانيتها مهزومة أمامه، وإن لم يكن في المقابل عقيدة تبدد هذا الوهم، فالوقتُ حليف الفكر الماركسي وأصحابه، أما العلمانية، فهي قنطرة لهؤلاء الملاحدة. وفتح كانت مخترقة بالفكر الماركسي، فيها شباب تدربوا في الصين وفي الدول الاشتراكية. وكُتُب إنجلز وماركس ولينين، تعج بها مكتبة السجن، ويقرأها الثوار قبل أن تقرأها شعوب الاتحاد السوفييتي. وعند كل فصيل مكتبة خاصة به، وأما القيِّم على المكتبة العامة فمناضل ماركسي، ويتدخل في الكتاب الذي يريده القارىء، وهذا حصل معي في كتاب اسمه الأم، عن الثورة البلشفية في روسيا، كتاب من خلال الأدب يدخل بك إلى الاشتراكية والإلحاد. وكان في غرفتي هذه عمر القاسم، عضو المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وكان عبد اللطيف غيث مسؤول الجبهة الشعبية في القدس، وكان يتفنن بالسخرية من كل شيء يرتبط بالدين، حتى إنه مرة قال لأخ فاضل اسمه

خالد العمري، وكنيته أبو عمر، أصائم أنت يا أبا عمر؟! متعجباً وبسخرية، فقال له أبو عمر: نعم، رياضة!! والصوم في ديننا رياضة، رياضة نفسية وروحية ومدرسة عجيبة لا مثيل لها، لكن هذه صورة عن غربة الدين، والخجل من الصيام أمام هجمة الإلحاد... هذا هو الجو العام وقتذاك، فالصوم دولة قوانين، ينضبط من هو صائم بكامل قوانينها؛ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[5]. هل في الأرض قوانين تضبط البشر بمثل هذا الانضباط؟ حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، عند ذلك انتهى كل شيء، لا ماء ولا غذاء ولا جماع، وإلى متى؟ إلى أن يُرفَع آذانُ المغرب، وعندها الأمة قاطبة تُقبل على طعامها، أمة بالمليارات من البشر تضبطها آية، بالدقائق والثواني، قوة عجيبة يتميز بها الصائم.

وعمر القاسم درسني في مدرسة صور باهر اللغة الإنجليزية قبل الاحتلال، وأيام النظام الأردني، وكان قومياً عربياً، يحدثنا عن العمل الفدائي وعن تحرير فلسطين، وهو من القدس، خرج إلى الأردن بعد حرب 1967، ورجع في دورية قتالية للجبهة الشعبية، قبل أن تتفكك وتخرج من تحت عباءتها الديمقراطية والقيادة العامة، وفي السجن حسم أمره إلى الجبهة الديمقراطية؛ لأن خطها الماركسي أممي، والجبهة الشعبية خطها قومي. وكان معي في الغرفة خالد طنطش من القدس، ماركسي ماوي؛ لأنه تدرب في الصين، والصحيح أن الفكر الماركسي عند كثير من أتباعه، ليس إلا متسعاً لهوى الأنفس، أو فكراً يبيح لهم الانفلات، وأن يعيش بلا الضوابط التي طالما اعتنى بها الإسلام وحافظ عليها، ومن ينتهكها لا ينتهكها إلا لأنه شهواني.

كان في القسم شباب من فتح، ومنهم الأخ وليم نصار، صاحب كتاب "تغريبة بني فتح"[6]، والأخ وليم نصراني، وكان لديه انتماء لفتح أكثر من كل من هو فتحاوي من العلمانيين والماركسيين، ولصدق وطنيته كان فريقٌ من فتح يحرضون عليه أنّ أمهُ يهودية. وكان ممن عملت معه وعرفته في السجن الأخ خليل أبو زيّاد شقيق زياد أبو زيّاد، الذي كان نائباً عن القدس، في ظلّ انتخابات أوسلو Oslo. والأخ خليل

---

[5] **القرآن الكريم**، سورة البقرة، آية 187.

[6] انظر: وليم نصار، **تغريبة بني فتح أربعون عاماً في متاهة فتحاوية** (عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2005).

لا يحمل انتماءاً فكرياً، وكان داخل السجن إيجابياً وخارجه كذلك، وهو من الأوائل الذين شكلوا حركة الشبيبة الفتحاوية بالتعاون مع أبي علي شاهين، الذي تولى وزارة التموين في الحكومات ما قبل العاشرة.

أنا الآن أعترف أني ما كنت ناضجاً في فهمي للإسلام، حتى وأنا في سجن الرملة، لكن كلمة شيخ مزعجة عند من يرفض التدين، بضاعتي قليلة، لكن الله يريدني لهذا الموقع، حتى قال لي الأخ محمد درويش من العيسوية، وهو من قوات التحرير الشعبية: كنت أطلب من الله أن يرزقنا بشيخ، وإذا بك قادم إلينا؛ لأن التدين محاصر، والمتدينون جدد على التدين، ورصيدهم من الفكر الديني والثقافة الإسلامية ضحل. وذات مرة ضاقت نفسي كثيراً من السجن في أثناء زيارة الأهل، فقال لي الوالد، رحمه الله: لعل الله سجنك لأجل إخوانك، ولأنهم في حاجتك. قلت: إخواني في السجن، لا إله إلا الله، مما هدأ من روعي.

لكن من يعنيني ذكرهم، وذكر أسمائهم من خلال هذه التجربة إخواني الذين شكلوا معي الجماعة الإسلامية.

Sidi ‘Umar: The Memoirs of Muhammad Abu Tair About Resistance and His 33 Years in the Israeli Jails

هذا الكتاب

يسجل هذا الكتاب ذكريات مسيرة طويلة لشيخ مجاهد، وشخصية إسلامية وطنية، برزت في سبعينيات القرن الماضي كأحد رموز المقاومة من أبناء حركة فتح. ثم أصبحت أحد أبرز مؤسسي الجماعة الإسلامية وحركة حماس في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

في هذا الكتاب، يشرح الشيخ محمد أبو طير تجربة 33 عاماً في سجون الاحتلال، ومواقفه ومواقف الحركة الأسيرة من القضايا الوطنية وهموم الأمة المختلفة. ويسجّل جزءاً مهماً من تاريخ الأسرى في سجون الاحتلال، وخصوصاً أسرى حماس، وما رافق ذلك من معاناة في السجون ومواجهات مع السجّانين. كما يتعرض لعلاقات أسرى حماس بالأسرى من باقي الفصائل الفلسطينية، وما رافق ذلك من حالات تعاون أو شدّ واحتكاك.

وتبرز في هذه الذكريات جوانب من تجارب العمل العسكري المقاوم الذي خاضه أبو طير من خلال فتح، ثم على مدى زمني أوسع من خلال حماس. بالإضافة إلى تجربته في العمل السياسي، وانتخابات المجلس التشريعي للسلطة الفلسطينية.

ويسر مركز الزيتونة طباعة هذا الكتاب الذي يخط شهادة وحكاية الشيخ أبي طير، شيخ بيت المقدس، الذي عُرف بين إخوانه بـــ"سيدي عمر"؛ ليكون أحد أهم ما صدر من كتب في تجربة الأسرى والمعتقلين في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

ISBN 978-9953-500-62-1

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations
ص.ب: 14-5034 بيروت – لبنان
تلفون: 644 803 1 961+ | تلفاكس: 643 803 1 961+
info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net